الأدب المعاصر، السنة السابعة، خريف ۱۳۹۴، العدد السابع والعشرون: صص ۵۱- ۷۲

دراسة الشعر الحسينى سياسياً(شعر حسن السنيد نموذجاً)

صغرى فلاحتى*
مرتضى زارع برمى**
حسين آشورى***

تاريخ الوصول: ۹۴/۱/۱۹
تاريخ القبول: ۹۴/۳/۱۸

الملخص

إنّ هذه الدراسة هى محاولة لإلقاء الضوء على الشعر الحسينى السياسى فى الأدب العراقى المعاصر من خلال شعر الشاعر العراقى حسن *السنيد*، على اعتبار أنّه واحد من أهم المتمردين السياسيين فى زمن *صدام* حسين. فاعتمدنا على المنهج الاستقرائى التحليلى فى قراءة النصوص الشعرية السياسية الثورية التى تنبعث من مضامين الفكر الحسينى لكى يتلاءم مع طبيعة البحث، وقد وصلنا إلى هذه النتائج؛ أن عاشوراء تمثل خطراً محدقا لسلطة الاستبداد السياسى على مر التاريخ والشاعر اختار جانب المعارضة السياسية للكشف عن انحرافات النظام السياسى وإصلاح الأمور، هذا أمر يعتقد الشاعر أنه من حقه ومن حق كل مواطن فى ظل الدولة المستبدة.

الكلمات الدليلية: عاشوراء، الشعر الحسينى، العراق، حسن السنيد.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* أستاذة مساعدة فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الخوارزمى. azmoude@gmail.com
** طالب الدكتوراه فى فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة الخوارزمى. tmu.zare@yahoo.com
*** طالب الدكتوراه فى فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة الخوارزمى. hosseinashoori266@yahoo.com
الكاتب المسؤول: مرتضى زارع برمى

المقدمة

إن نهضة سيدالشهداء تتمحور حول ثلاثة أسس رئيسية هی ۱) الإنسان؛ ۲) اللاعنف؛ و۳) مناهضة الظلم. وبالنسبة إلی المحور الأول؛ فإن كربلاء كما إنعكست فی شعر الرفض المعاصر أرادت أن تعيد الإنسان إلی سابق عهده كما خلقه الله تعالی حراً، فی قوله تعالی:

﴿يضع عنهم إصرهم والأغلال التی كانت عليهم﴾(الأعراف/ ۱۵۷)

أما بالنسبة إلی المحور الثانی والثالث، فإن كل المصلحين عبر التاريخ ينطلقون بحركتهم التغييرية بشكل سلمی لا عنفی، وسلاحهم الوحيد فی خوض هذه المعركة هو الكلمة أی المنطق والحوار والدليل والبرهان فی قوله تعالی:

﴿تعالوا إلی كلمة سواء﴾(آل عمران/ ۶۴)

إلا أن الحاكم الظالم هو الذی يحول هذه المعركة المنطقية عادة إلی حرب مسلحة يستخدم فيها كل أنواع السلاح الفتاک ضد الخصم، المصلح هنا، لأن الظالم عادة لا يمتلک من سلاح الحكمة والمنطق والحوار شيئاً وإلا لما ظلم ولما طغی فإنما يطغی الحاكم عندما يعييه المنطق؛ فيتوسل بالسلاح الفتاک لمحاربة كل من يسعی للتغيير ويطالبه بالإصلاح وهو حال الطغاة المعاصرون من أمثال *صدام حسين* و*بن علی* و*مبارک* وأخيراً وليس آخراً *القذافی*) الذين ماتوا أو سيموتون بذل وهوان(إبن خلدون، ۲۰۰۷: ۲۰۹).

هذا من جانب ومن جانب آخر فی الوقت الحاضر وبعد غلبة الطابع السياسی علی قراءات عاشوراء، فالنتيجة تكون الإسلام الحماسی و*حسين* الشهادة وشعر الشهادة للمكافحة مع الأنظمة غير الديمقراطية، وليس *حسين* مصيبة وعزاء بحتاً بل *حسين* الدم وليس *حسين* الدمع. ويؤيد ذلک المتداول من عناوين ومفردات هذه الحقبة والتحوّل الذی طرأ علی مجراها بالتزام أدب الحماسة، من قبيل التحرر والحرية والثورة والنهضة والخروج والنضال والجهاد والأمر بالمعروف والنهی عن المنكر والإصلاح والحكومة والسياسة والعدالة(إسفنديارى، ۲۰۰۷: ۱۷). كما استلهم حسن *السنيد* فی أشعاره المضامين التراثية المختلفة فاتكأ علی الموروث التاريخی تارة والموروث الدينی الشعبی بعض الأحيان، فوظف رموزاً مفردة ثائرة ومتمردة مستمدة من التاريخ العربی الإسلامی ولاسيما نهضة عاشوراء وشخصية *الإمام الحسين*(ع) التی جاءت من خلال وعيه للماضی،

وفهمه للحاضر واستشرافه للمستقبل واستحضرها فی أكثر من موضع وجعلها مصدراً يستمد منه صور الثبات على الحق، ومقارعة الباطل والظلم وصور الكرامة والحرية والرجولة والبطولة والإيثار والمواساة وكل قيم السماء ومناقب الأخلاق التی ضحى من أجلها الحسين والثلة المؤمنة من أهل بيته والصفوة الطاهرة من أصحابه الميامين:

«دعوناک، دعوناک حسينا
أيَّها النحرُ الذی حطَّم سيف المجزرَة
أيُّها القبر الذی يرفض صمتَ المقبرة»

(السنيد، ۱۹۹۱: ۶۹-۷۰)

هذه الظاهرة الشعرية إنما وجدت نتيجة إحساس الشاعر بضرورة مسايرة الحياة المعاصرة، وتتفاعل مع التطورات السياسية والثقافية والإجتماعية التی كانت تشهدها العراق(ناصر، ۱۹۸۵: ۱۵۲). منها ظاهرة الطغيان والقمع؛ التی لم تعد مجرد حالات شاذة تصدر عن هذا النظام وتظهر فی حالة الضرورة ثم تختفی بعد زوال أسبابها، ولم تعد الممارسات القمعية مجرد إجراء وقائی لحماية النظام، وإنما صار القمع والاضطهاد سمة بارزة لكل الحكومات المتعاقبة عثمانية وأجنبية وعربية، غير مرهون بطبيعة محددة لأنظمة ملكية أو جمهورية أو رجعية أو تقدمية أو رأسمالية أو إشتراكية، فجميعها مارس ما وصلت إليه عبقريته من فنون سحق الشعوب واضطهادها، كما أنه غير مرهون بمرحلة زمنية معينة أو بفترة انقلابية أو انتقالية معينة(أبو نضال، د. ت: ۷ والمسمری، ۱۹۸۸: ۴۱۰)، ولكن كل تلک الممارسات لم تستطع إسكات صوت الثائرين والرافضين والمتمردين لأننا نجزم لو كانت عاشوراء حاضرة فی واقع الأمة، لأقامت النظام السياسی الديمقراطی القائم على أساس إرادة الأمة وحسن خيارها وحرية أبناءها على قاعدة.

كما أن عاشوراء فرصة ذهبية لإثارة روح التحدی فی نفوس الأمة ومن أشد مقاطع التاريخ إلتصاقا بواقع الأمة فی كل آن، ومن أكثرها تأثيراً عليه. لأن قصة الصراع الأزلی بين الحق والباطل، وبين الظالم والمظلوم، كانت ولا تزال باقية فلذلک خلدت عاشوراء مهما تجدد الزمن(مطهری، ۱۳۸۱، ج۱: ۱۸-۲۰).

السؤال الرئيسی: ما هو أهم مضامين الشعر الحسينی وأهدافه سياسياً فی عصرنا الحاضر؟

سابقية البحث

يعد المنهج السياسى فى دراسة النهضة الحسينية من المناهج الحديثة، حيث يوظف أدوات المفاهيم السياسية فى تحليل النهضة الحسينية بعددها السياسى فى زمنها والأزمان المتعاقبة. والدروس والعبر والخطط المنهجية التى أبدعتها هذه النهضة فى هذا المضمار، ويعد كتاب المفكر الإسلامى *الشيخ محمد مهدى شمس الدين* «ثورة الحسين» من أهم الكتب التى درست النهضة من هذه الزاوية كما لا يخلو العالم الإسلامى *الشيخ مرتضى مطهرى* «الملحمة الحسينية» من دراسة النهضة الحسينية بهذا المنظار.

ومن المعلوم، إن دراسة ظاهرة عاشوراء فى الأدب عامة والشعر خاصة، لها مؤلفات، وبما أن لهذا الموضوع من السعة والشمول فهذا يقتضى منا أن نفرد له صفحات كثيرة إلا أن فضاء المقال لا يتيح لنا هذا. أما بالنسبة لشاعرنا حسن *السنيد*، ففضاء البحث لايزال محتفظاً بعذريته، لأنّنا نعتقد أن طموحات أىّ باحث أكاديمى لا يمكنها أن تتحقق بالنسبة المرجوة عند أىّ باحث. لهذا يبقى مجال البحث فيه مفتوحاً ينتظر مقاربة وقراءة أخرى.

إعتمد الباحث على جمع المعلومات ذات الصلة بظاهرة نهضة عاشوراء وتأثيراته العامّة فى الشعر، من خلال المتابعة الشخصية لكل ما يبثّ وينشر عبر مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة، الرسمية وغير الرسمية، ومواقع التواصل الإجتماعى كتويتر والفيس بوك واليوتيوب وغيرها.

الشعر الحسينى

ثورة *الحسين* مادة خصبة استطاع الأدباء أن يستلهموها فى فنّهم استلهاماً واسعاً أمدّ الأدب الشيعى والأدب الرفض بثروة ضخمة من القصائد(أمين، ١٩٣٦، ج٣: ٣٠۴). ولا غبار على هذا القول إذا ما دققنا فى شكل ومضمون القصيدة الحسينية، فهى أضافت إلى الشعر العربى عامة والوجدانى خاصة رؤية جديدة فى الشكل والمضمون، فقد أخذت القصيدة الحسينية مهمة اصلاحية نابعة من وجدان الشعر، تمثلت برصد الوظيفة الكبرى لثورة *الإمام الحسين*(ع)، وهى الاستنفار لقيم الله سبحانه بنصرة الحق ودفع الباطل مهما كان الثمن، إذ إلتفت إليها الشعراء ففقهوها وغدوا مقتنعين به فجعلوها فى صف التقى والصلاح

ومعانى الخير للبشرية، فيما يأخذ أعداؤه فى قصائدهم جانبا مظلما لا تتحرك فيه إلا عيون الشيطان، ولا تدب فيه إلا حركة الخبث والجهل وسحب الباطل، وهذه السمة ولّدت بذرةً وجدانية ظلت حية منذ الفاجعة إلى يومنا هذا.

وكذلک قصائد عاشوراء نمت روحياً بتجديد الزمان، لأن *الحسين* يرفض الحياة فى الذل وأظهرت شموخ أهل البيت وسجاياهم الكريمة ومظلوميتهم، فأثّر ذلک كله فى عواطف المجتمع الإسلامى والإنسانى تأثيراً عميقاً وظلت معالم الأسى مقرونة بالثورة وهى تفوح من كلام الشعراء فى كل عصر لتحرق الضمير الإنسانى، وتهز الوجدان أينما سمع ذلک الكلام. وأصبحت هذه القصائد محركة للأمل والخلاص فى كل عصر يحتدم به الظلم، وينشر الطاغوت عباءة الخوف على رؤوس الناس، فحققت القصيدة الحسينية وظيفتها تجاه وحدة الصراع مع الحكم الجائر، وأصبحت خير ناقد لمساوئ حكام العصر، أو الظواهر غير السامية فى المجتمع(عنوز، ۲۰۱۳: ۲۰-۲۳).

انتماء الشاعر إلى إنشاء علاقة بين الواقع الأليم والثورة الحسينية

فإذا جئنا إلى العصر الحاضر وجدنا أن المثقف العربى لم يتخلص من ثقل ذلک الميراث القديم المشوب بالخوف والحذر(الدكتاتورية والإستعمار)، على الرغم من الشعارات الكثيرة المرفوعة باسم المنظمات والهيئات الدولية كمنظمة حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية ومجلس الأمن والأمم المتحدة وغيرها، والمتشدقة باسم حرية الشعوب وحرية الرأى والديمقراطية والعدالة وكثير من المصطلاحات التى ظلت مجرد حبر على الورق، كما ينشد شاعرنا فى قصيدته *أشياء* يفهمها الثوار؛ ذلک أن الاستبداد ظل هو هو وإن لبس أثوابا جديدة وظهر بمظهر متمدن:

«الشِّمرُ ها قد سجّل اعتذاره
عن مقتل الحسين،
فى الأمم المتحدة!
والقدسُ ها قد هَوَّمت
على غِناء الأمم المتحدة!
وتنقلُ المصادرُ المقرَّبة:

أنَّ رجالَ الأمنِ فى الميناء
قد أغلقوا الدروب
وألقوا القبضَ على أغنيةٍ
ثائرةٍ تحاولُ الهروب
وحوكمت بالعدل!! فى لاهاى
فَأعدمت!
وسُلّمت جثتُها للأُمم المتحدة!
وتنقل المصادر المقرَّبة:
أن الصليبَ الأحمرَ الدوليَّ
ما يزال
يبذل ما فى وسعه ليوقف القتال،
فى غابة بين فَراشتين!
ثم يعود حاملاً نَقّالةَ الجرحى
لأرض الطَّف
وجرحُها فى قلبها ما جَف
فيدفن القتلى،
وينسى جُثّةَ الحسين!»

(السنيد، ١٩٨٦: ١١١-١١٢)

هذه القصيدة حققت تلاحما بين ذات الشاعر المتمرد والنص من وجهة والمقارنة بين واقعه والقيم الحسينية النبيلة التى ثار من أجلها *الحسين* من أخرى، فرصدت القصيدة الواقع مُعَرِّيَة إياه بسبب الظلم والباطل والشر بأنواعه وإتجاهاته فى كل زمان ومكان. بعبارة إستخدام الشخصيات التراثية ونفس التراث تؤدى بطرق متمايزة المعانى المحرمة حسب رغبة قائله(الصغير، ١٩٨١: ٣٧) فى الأنظمة البوليسية، وبذلك كانت قصيدته إنعكاسا موضحا للواقع المعيش، هو أن الدكتاتورية البعثية والحكم الفردى فى ظل المجامع الدولية يلغيان الحركة السياسية فى العراق(الجنابى، ٢٠١١: ٥٦)؛ فتصبح الشعر الحسينى حينئذ صوتا ومرآة للمسكوت عنه وللمحتجين فى ذلك الواقع.

السلطة ترى عاشوراء تعارضا ضد السلطة

رضاخان فى إيران و*ياسين الهاشمى* فى العراق و*آتاتورک* فى تركيا كانوا يحملون مهمة واحدة وغاية مشتركة ألا وهى القضاء على الدين وتقويض الشعائر الحسينية المقدسة، لأن عاشوراء تمثل خطراً محدقاً بسلطة الإستبداد السياسى، ولكن رغم خشونتهم المفرطة والأعمال الإجرامية والأساليب القمعية التى قاموا بها، باؤوا بالفشل الذريع(الحسينى الشيرازى، ۲۰۱۲: ۱۹).

وينقلنا حسن *السنيد* فى قصائده منها «بيروت بغداد»، إلى النظام الصدامى، الذى هو سعى بكل جهده، من أجل القضاء على كل ما يمتد إلى *الحسين*(ع) بصلة اسمه، رسمه، قبره، نهجه، كلمة تقال بحقه أو عنه، شعائره لهذا يبدأ بإغلاق أبواب الحرم الحسينى وتكميم الأفواه، وقمع الزوار والمعارضة، وأعدم محبيه واغتال عشاقه وسجن زواره:

«ونحن هنا فى العراق
يُعذّبنا ضابطُ الأمنِ!
يخلعُ أظفار أقدامنا.. واليدين..
لأنا عشِقنا الحسين..
لقد أغلقوا اليومَ بوابة الصحنِ
فى كربلاء
وقد أعدموا ثُلّةً.. أبرياء
وما زال فى الطفِّ يمتدّ لونُ الدماء»

(السنيد، ۱۹۸۶: ۶۸-۷۲)

وبكلمة، لقد عرف النظام الشمولى البائد جيداً أن الظلم وعاشوراء نقيضان لا يجتمعان. ويبدو واضحا من نص القصيدة «أشياء عن مكة»، أن *الحسين* الذى خلقه شاعرنا، أراد إثبات حقيقة لا تقبل الشك، هى مسؤولية تجاه الأمة فى ظل الحكم الجائر التابع كآل سعود، لأن قول *الرسول* يسوغ الرفض والثورة ضد الحاكم الظالم الفاسق الذى تعدى حدود الله، وحكم بغير ما أنزل الله(هنون، ۲۰۰۸: ۳۳):

«عاد أبولهب
يحمل فوق ظهره آلهة الخشب

يبنى عروش حقده القديم
على عظام الجوع والسغب
وينثر الدماء فى زمزم والحطيم
يحمل فوق ظهره آلهةَ البترول والخشب
ويذبح ابتسامةَ الحجيج
لترسوا البواخر الشقراء فى موانئ الخليج
وتحفظ السلام فى مكة
بالرصاص والهراوَه!
يا كبر الدماء
يا لون إعصار يخط الجرحَ،
فى رمال كربلاء
إغضب، فهذا موسم الطواف بالمآزر الحمراء
واغضب،
فهذا موسم الصلاة فى الدخان
واغضب فهذا موسم الغضب»

(السنيد، ١٩٨٨: ١٧٧-١٨١)

كان جانب الرفض فى الخطاب الحسينى كما أشار إليه شاعرنا، هو التخلص من أيادى الاستعمار والفقر والظلم والقمع ويهدف إلى الإصلاح فى البنية الاجتماعية والسياسية والدينية، ويلتقى هذا الرفض مع هدف الأمام من خروجه وهو طلب الإصلاح فى أمة جده، ويطابق تماما المسار الذى رسمه الإمام لثورته ضد الظلم والانحراف، لذا نجد فى خطاب الشاعر طائفة من التراكيب عبر بها عن الرفض المطلق لكثير من التوجهات ولاسيما فى الجانب السياسى الذى يحدث فى البلاد الإسلامى(الياسرى، ٢٠٠٩: ١٤٣).

كربلاء وولادة التيارات السياسية الغالية(المختار، والخمينى، والصدر)

عاشوراء انعكست على الحركة الشيعية بجميع روافدها وحركة *المختار الثقفى* التى تعدّ أول ثورة شيعية ناجحة تمكنت من الوصول إلى السلطة والثأر من قتلة *الحسين* وأصحابه

عنـد نهـر الخـازر. تعـدّ حركـة المختـار أول حركـة شـيعية مسـلحة مـن أجـل اسـتلام الحكم(الطبرى، ١٩٦٩: ٨٦ وما بعدها).

«سورةُ الكافرون ملحمةُ اللّاءات
فينا، فكلُّنا إصرار
أضحى، وبيننا المختارُ
كلُّ مستعذب البلاء يمرُّ الضيمُ
فيه.. وصبره مَوّارُ
لن تضيعَ الخطى ففى دربنا
المحفوف بالنزفِ لم تزل آثارُ»

(السنيد، ١٩٨٦: ٤٥-٤٦)

إن المختارية نجحت فى استقطاب الإيرانيين وتحولهم إلـى الخـط الشـيعى السياسـى والولائى لآل البيت النبوى ويعد ذلك توسعة فى قاعدة الإسلام الاجتماعيـة وفـى حراكهـا الثقافى والفكرى والمذهبى، كما لا يفوتنا بأن الإيرانيين هم مـن سـيكونون رواد الحـراك السياسى والمذهبى فى مراحل قادمة مـن تـاريخ الخـط الشيعى(صـديقى، ٢٠٠٨: ٢٠١). وهذا كلّه مدين أيضا إلى حد كبير لنجاحات *الإمام الخمينى* وأتباعه من العلماء فى تقديم أطروحة عملية عن ثورة عاشوراء فى إنتفاضة الشعب الإيرانى(ظاهرى، ٢٠٠٧: ٥٦).

و*للخمينى* خطابٌ بيّن خلاله آليـة الاقتـداء بعاشـوراء ومعطياتهـا أنّ كلمـة كـل يـوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، لشعار عظيم أخطـؤوا فهمـه؛ فتصـوّروا معنـاه فـى اسـتمرارية البكاء، وهو بالتأكيد خلاف مضمون نصّه، فماذا صنعت كـربلاء؟ ومـا دور أرضـها فـى يـوم عاشوراء لكى يتحتّم على سائر البقاع أن تقتدى بها؟ إنّ معنـى كـربلاء يكمـن فـى تلـك الأرض التى سار إليها مجموعة من الأفراد ليقفوا بوجه يزيد ودولته الطاغية؛ إنهـم جـابهوا امبراطور زمانهم وضحّوا واستشهدوا دون أن يخضعوا للظلم، وبـذلك انتصـروا علـى يزيـد؛ فعلى الأماكن الأخرى أن تكون بهذا المستوى، وعلى الأيام أيضاً أن يكنّ بمسـتوى مجـد ذلك اليوم.

وعلى شعبنا أن يتصوّر كل يوم كيوم عاشوراء؛ فلابدّ لنا من الوقوف بوجه الظلم، وهـذه كربلاء هنا ولابد من إحياء دورها؛ فهى لا تحدّ بجغرافيا أو تـاريخ، ولـيس دورهـا مقتصـراً

على عناصر محدّدة لا يتجاوز عددهم السبعين شخصاً، بل ذلك كلّه حاضرٌ فی كل مكان وزمان(الموسوی الخمينی، ١٣٨١: ٥٨):

«غُنيتُ جحفلَ روح الله ملحمةً
سَمَت على كُلِّ ما قالوا وما سَرَدوا
وعفَّروا جبهةَ الدنيا وقد شمخت
فما بريق أمانيها.. وقد زهدوا
لَبّوا حسيناً على أصداء صرخته
كأنهم بجراح الطفِّ قد ولِدوا
لم يشهدوا كربلا لكنهم عبروا
بحراً من النزف فيه كربلا شَهِدوا»

(السنيد، ١٩٨٦: ١٢٢)

ويكون فی اهتمام شاعرنا بمحتوی هذه القصيدة، تشجيع شعبه على الثورة الولائية ضد الظلم، لاسيما مع انطلاق أوّل شرارة للثورة الإسلامية فی مطلع الأربعينيات من هذا القرن؛ أن *الإمام الخمينی* استعاد هيئات العزاء مكانتها الحقيقية، وعادها شيئاً فشيئاً إلی يد الشباب الثوری. وبهذا استعادت التجمّعات حياتها ونضالها فی مقارعة للظلم الداخلی(الاستبداد البهلوی)، باتت أيضا تهتمّ بمواجهة الظلم الخارجی المتمثل بالاستكبار العالمی والصهيونية، مع إقامة العدل والعمل على إصلاح الشخص ومحيطه، مساعدا فی تحقيق بعض المرامی السياسية للحاكم الثوروی *الإمام الخمينی*.

واشتهرت أسرة الصدر بالجهاد والتقوی، حيث يذكر منهم *السيد هادی الصدر*، و*السيد حسن الصدر*، و*السيد محمد صدرالدين الصدر*، و *السيد عبدالحسين شرف الموسوی* ابن عم أسرة آل الصدر. ويعتبر هذا المحيط الفكری الأسری أحد أبرز العوامل التی جعلت محمد*باقر الصدر* مفكرا حسينيا جهاديا لشعب العراق:

«علمتنی يا صدر أن ألجَ المدی
أن أستخفَّ بمن أعدَّ.. وهدَّدا
ورسمت لی فی الرفض دربَ بطولةٍ
وعرفتُ أن لن أستكينَ وأسجُدا

نَم يا حسين العصرِ حسبُک أننا
باقون ننهلُ من يديک الموردا»

(السنيد، ۱۹۸۶: ۸۳-۸۴)

کما أشار شاعرنا فی هذه القصيدة، أن *الصدر* هو النموذج المثالی لطريق *الحسين* ولأدب ولحرکة المقاومة الذی لا يعرف العتاب والعويل، ولا التنصل والتخلی ولا الإنهيار أمام أصغر هبة ريح.

الانتفاضة

مازال هناک ظلم فی زمن ما وفی أرض ما، ولهذا يجب أن تتجدد عاشوراء بقيمها وتضحياتها، لتأخذ على يد الظالم وتوقفه عند حده وتجدد روح الثورة والتمرد على الظلم فی نفوس المظلومين. إن الإنتفاضة هی أول تحدٍ شعبی جماهيری عام للنظام الديکتاتوری البائد، التی نقلت وقود الثورة وعملية التغيير من السجون المظلمة إلى الشارع وأمام مرأی ومسمع الرأی العام، تعبئة مختلف القوی الشعبية، لشنّ الهجمات المسلحة، وخوض حرب الشوارع الاستنزافية والقيام بالعِصيان المدنی(الشيوخ، ۲۰۱۳: ۷۸). فهی إذن حولت المواجهة مع النظام من العمل الحزبی النخبوی إلى العمل الجماهيری، ولذلک فإنها المفصل فی عملية التحدی والتغيير:

«لقد قتلوا اليوم بعض النساء..
وهذی بنادقهم لاتزال..
معلقةً فی الجدار..
تحوک لنا موتنا.. والدِّمار..
سجن أنصار اليومَ،
قد أضربوا فيه.. تسعون معتقلاً..
رفعوا صوَرَ الصَّدر،
واستُشهدوا..
ونحن هنا فی أبی غريب،
نکتب نشرتنا ونوزّعها فی الظلام..

وندفن تحت أسِرَّتنا
صورةً للإمام..
قُطع اليومَ معبرُ صبرا
بقصف جبان..
وطفلٌ بها اختنق الآن إثرَ الدُّخان..
ولعبته لم تزل فی الطريق
ومدرسةُ القدس فی الفاكهانیِّ
قد شبَّ فيها الحريق..
ونحن لقد أصبح اليومَ مجموعنا
ربعَ مليون جرحٍ وأكثر..
وما زال فينا..
حسينٌ،
وجرحٌ،
والله أكبر
قُتِلَت فی المعارک مريم دَهينی
وكانت كَطُهر الندی
قُتِلَت فی الزنازين بنتُ الهدی..
أصبح القصف يشتدُّ
«قنبلة» سقطت..
وأنا..»

(السنيد، ١٩٨٦: ٧١-٧٣)

إن اللسان ليعجز والقلم ليجف عند الحديث عن أهوال المجزرة التی ارتكبها النظام البعثی بحق المشاركين فی الإنتفاضة، فعلی الرغم من أنها كانت حركة شعبية عفوية وسلمية لا تحمل أی نوع من السلاح لا الناری ولا الأبيض، إلا أن النظام البائد واجهها بكل أنواع السلاح الثقيل المدعوم بالطائرات التی ظلت تحلق فی السماء فوق رؤوس الناس كما جاءنا الشاعر فی قصيدته «الأطفال لا تعرف الموت»:

«مرت الطائرة الحمقاءُ،
تهاوی السقفُ، وانهدَّ جدار
والدمُ امتدَّ، وأشلاء توارت فی الغبار
وبقایا دمیةٍ ضاعت،
وکفٌّ، وسوار
فالدنیا وما فیها دخانٌ، وحریق
وتواری فی رماد الموت،
لا شیء سوی الصمتِ،
وعکّازٍ ونظاراته فوق الطریق
والمذیاع فی بغدادَ
صوت یتقیّا الخوفَ،
موسیقی، والفاظا کبیرة،
وبیانات عن الموت بساحات الشَرف،
وأناشید عن النصر، أکرم القائد طیاراً،
وأعطاه وسام!»

(نفس المصدر:۱۶۴-۱۶۹)

إنها دماء تراق علی الأرض فی مواجهة الشعب والدیکتاتور، لأنه یبنی سقفا سیاسیا فوق رؤوس شعب العراق، لا یسمح لأحد تجاوزه، فتقتله إذا أصر علی تجاوز السقف السیاسی المحدد للشعب(مک داول، ۱۳۸۳: ۵۳۰) کما أشار شاعرنا إلیه فی قصیدته رجب *الرفض*:

«لم تَرُعنا مشانقٌ فی ثنایاها
أباحت رقابها الأطهار
جرحنا لن یموتَ فهو إمتدادٌ
لحسینٍ، یخطه الأحرارُ
لم تمُت أنت یا شهیدُ، ولن یُخنَقَ
شعبٌ، وصوته هدّارُ

يتهادى بسمعه صوت عاشوراءَ
والحقُّ قطبه والمدارُ»

(السنيد، ۱۹۸۶: ۴۶-۴۷)

ولولا تلك التضحيات الجسام التى قدمها العراقيون على طريق ذكرى واقعة الطف العظيمة، لما شاهدنا اليوم كل هذا الزحف المليونى إلى مرقد سيدالشهداء فى كربلاء المقدسة. لا نرى تحول الحياة والعزة والكرامة والديمقراطية إلى ناموس اجتماعى وإلى الناس لا دخل لهم فى شأنها.

الإستشهاد والخلود الحسينى

قضية *الحسين* رسمت طريقاً جريئا للرافضين ومن يسلك آثارها يحطم قيود البؤس والطغاة(عنوز، ۲۰۱۳: ۲۶). لأن *الحسين* يعد الممثل الطبيعى للإتجاه الجهادى الإصلاحى، كان صوت جمهور المسلمين المفجوع ولقد شحنت ثورته الفكر السياسى فى الإسلام بنفس جديد من التحدى والتضحية والإستشهاد من أجل المبدأ(صدّيقى، ۲۰۱۲: ۴۴) كما جاءنا الشاعر فى قصيدته «أشياء عن الإنسان»:

«لكنَّ موت أُمةِ الجراح مستحيل
لأنها تنظر من فواصل القرآن
لن يسمع العالمُ يوماً صوتنا المهان،
إلا إذا لعلع من فوهةِ بندقيَّة
لا يموت الفكرُ مذبوحاً،
على شفرة سيف
ربما يشرب من أوادجه الحمرا شقىٌّ
غير أن الألم المدفونَ،
ينمو كالشجر
ثم يهتز كدولاب القدر
لتطيح اللات، والعزّى،
وأكوام الحجر

نحن لا توجعنا ضربة جلادٍ غبیَّة
إنما نصغی إذا ما صرخ الرشاشُ،
فی قبضة ثائر..
إذا ما حمل الإنسانُ،
فوق الکفِّ عمرُه
نحن نصغی للذی.. لا یسکن قبرُه!
والذی یحیی، ویقتاتُ علی الجرحِ،
ویحیی ألف مرَّ!»

(السنید، ۱۹۸۸: ۱۳۶-۱۴۵)

کما أشار *السنید* فی قصیدته أن *الحسین* حاضر فی کل یوم، وله أثر فی فهم الأوضاع القائمة وفی تقدیر الإتجاهات والتطورات المقبلة، لأنّه موضوع حی یقوم بدور بلیغ فی الثقافة والتکوین الاجتماعی والخلقی لحرکات شعب النضال، وصرخة بوجه کل ظالم، ونداء حریة وکرامة لکل انسان(الدوری، ۲۰۰۵: ۱۵).

شاعرنا إعتقد؛ إن *صدام حسین* هو الذی أغلق کل أبواب التغییر بوجه الثوار الحسینی ما عدا باب واحد هو باب الجهاد، فلم یعد الکلام ینفع کما لم تعد المعارضة السیاسیة والدبلوماسیة تنفع(زارع بِرمی، ۱۳۸۹: ۱۱۸). بل تنفع لغة السلاح ولغة الوحی کلاهما أساس نهضة *الحسین* ونهضة شعب العراق:

«أقرأ فی کتابه المخضوبِ کلمتین
أقرأ: قرآن وبندقیة
فأحمل الهویة»

(السنید، ۱۹۸۶: ۱۷۹)

لأن *الحسین* عاش مع أجواء الشهادة، ودربه وأخلاقه بقیا بعد استشهاده خالدین ومفتوحین أمام الآخرین(التمیمی، ۲۰۱۲: ۱۹). یعلمنا *الحسین* أن التجربة الثوریة هی تجربة حیاتیة عامرة بالحب والتضحیة، وأن الحب الحقیقی هو الاستعداد الشامل للتضحیة والفدائی هو محب ومتصوف کبیر یعیش متخلیاً سخیا عن ذاته لیحل فی الثورة وتحل فیه(السید جاسم، ۱۹۹۵: ۱۶۷):

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

«أن يكون الفداءُ بعضَ عطايانا
وقد بيع للالهِ الفداءُ
فاشهدی یا سماء أنا سنبقی
وسیبقی طریقنا یا سماءُ
وسنبقی مادام یصرخُ فی الدنیا
حسینٌ تضمه کربلاءُ»

(السنید، ١٩٨٦: ١٣٥-١٣٦)

هو یری أن أبطال عصره ماضین نحو الشهادة فی ثبات ویقین واشتیاق، واهبین بموتهم حیاة للآخرین، فی عیونهم عناد وإصرار علی المضی کأنما هو مستمد من کربلاء. یقول مخاطباً کل شهداء العصر:

«لحکایاک وجوه کوجوه الأنبیاء
ولعنادک عناد قادم من کربلاء»

(نفس المصدر: ١٢٣)

الحسین هو عنوان الکرامة والیقظة والحماسة

إن کرامة الإنسان تتجلی فی ثلاث قیم أساسیة واستراتیجیة: الحریة والمساواة والشراکة، هی الیوم محور الدیمقراطیة التی یکتب ویتحدث عنها ویبشر بها العالم(بدرالدین، ١٩٨٦: ٣٦)، وعاشوراء جوهر الدیمقراطیة لأن *الحسین* کما جاء، استهدف بثورته الجهادیة والإصلاحیة فی العاشر من المحرم عام ٦١ للهجرة، إعادة الکرامة التی سلبتها السلطة الغاشمة من الإنسان والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر(سیاسیاً ودینیا) أولاً وقبل أی شئ آخر(الیاسری، ٢٠٠٩: ٨٣-٨٢).

ینشد *السنید* فی قصیدته «أشیاء مثل الدم»، أن *الحسین* هو الذی بذل عمره وکل ما فی وسعه من أجل نجاة الأمة وتنبیهها إلی الخطر العظیم الذی عاشته فی ظل سلطة سیاسیة منحرفة وظالمة. لأن البیعة بالإکراه لحاکم ظالم دلیل صارخ علی أن الأمة بلا کرامة، وإن أمة لا تمتلک حق الإختیار لهی أمة میتة:

«علی جرح الحقیقة ینثر العمرا

ويسقيها على يبسٍ،
عرفتک حين کان الناس فی إغفاءةِ الخدر
رأيتک تقرأ الآهات،
كأنک تستغيث بألف وجهٍ قد من حجرِ
وكنّا صوت نادبةٍ
وغطى قسوة العثرِ
بصبر النخل، وأو بجراح منتصر
ولا ركعت لنصل القاتل القذر
ولا خشعت بدرب الخوف»

(السنيد، ۱۹۸۸: ۹۹-۱۰۱).

فمن أجل هذا يليق *بالحسين* أن يكون عنوان كرامة الأمة والدفاع عن العقيدة فعلينا أن نتعلم منه كيف نصون حريتنا وكيف نحافظ على خياراتنا بصدور عارية، فلا نعطی البيعة لكل من هب ودب(الياسری، ۲۰۰۹: ۴۱-۴۲). كما جاء فی قصيدته «هكذا تكلمت» أن *الحسين* مثل يضرب لمن يختار الموت العزيز على العيش الذليل؛ ونرى أن خطاب الشاعر هنا خطاب ثورة، وخطاب معركة وخطاب البرهان القاطع فلا غرابة أن يمثل البعد الحماسی والعقلی جانباً كبيرا من بنية هذا الخطاب سواء أكان ذلک فيما قاله أم فيما تمثل به، ذلک أن خطاب الحرب والقتال مع الإستبداد وما ينصرف إليه من دلالات تمثل الدفاع عن الهدف وإقناع السامع بما يقوله المنشئ، كل ذلک يتطلب توافر الخطاب على جانب حماسی ومنطقی واستيقاظی يزداد بروز هذه الأبعاد خلال الشعر، لأن مثل هذا المقام لا يجوز فيه إظهار الضعف والإستسلام فی مخاطبة العدو فيجعله طامعاً فی المزيد، ومن هنا كان من الواجب إظهار الحماس والقوة والشجاعة فی الخطاب والابتعاد عن مبدأ الخضوع(نفس المصدر: ۱۴۱-۱۴۲):

«قلت للشاعر:
هاتيکَ الجياد
ملء عينيها تحدٍّ وعناد
والجياد،

حافرٌ يقرع فی الصخرِ
ولا يغفو بواد!
قلت للفلاح: يا هذا،
إذا ما التهمت حقلَکَ،
أسرابُ الجراد
کيف تغنيکَ مواويلُ الحصاد؟!
قلت للثائر: لا توجد بين السيف والذلّة
ساحات حياد
أنت إن لم تحمل الجمر لظیً،
تحمله إذ يبردُ،
أشلاءَ رماد!»

(السنيد، ١٩٩١: ١٣١-١٣٣)

إن کربلاء مدرسة خالدة لا توصد أبوابها، وإن صفوفها مفتحة لکل من يريد أن يحضرها ليتعلم کيف يحيا بکرامة، وکيف يعيش مالکاً خياراته. ولذلک علينا أن نحتفظ بعاشوراء کقضية استراتيجية نهتم بها کحرکة وعی نرتب عليه أثراً مباشرا علی حياتنا اليومية، وعلی طريقة تفکيرنا(مجموعة من الباحثين، ٢٠١١: ١۴ والجابری، ١٩٩٩: ١۴). حين لم يکن هدفا للأنظمة المستبدة سوی احتکار السلطة، والاستيلاء علی مقدرات الشعب(الشيوخ، ٢٠١٣: ١۵۴)، کما أشار إليه الشاعر فی قصيدته «أشياء عن الإنسان»:

«أصيح: تعالوا يا أهلی
هذا الزمن الصخریُّ،
تفنَّن فی قتلی
لحظاتی تغرق فی الوحل
أيامی تغرق فی الوحل
أصيح، وأصرخ فی السرِّ
لا ثالث فی لغةِ النصرِ
إما أن نَصبح نحرَ حسينٍ،

أو نغدو سيفَ الشمرِ!»

(السنید، ۱۹۸۸: ۱۳۱-۱۳۳)

طريقة الحسين وطريقة الثوار هی الطريقة الحمراء

ينشد حس السنيد فی القصيدة «أشياء مثل الدم»، من *الحسين* الذی استقبل واقعات البلاء، مفردات مريرة من العناء والمكابدة المصحوبة بنزيف الدم، وقد قصد ساحة المواجهة بكل مخاطرها لتكون له ولأسرته ولخاصة صحابته منها تلك الحصة البالغة من التنكيل والبطش؛ والذی تلاحقت فصوله الدموية فی واقعة عاشوراء وما بعدها وفيما لم يشهد الإنسان مثل تلك الحالة النادرة فی وفود *الحسين* على ساحة الهلاک المحقق مع أهله(التميمی، ۲۰۱۲: ۶۸-۶۹)، دون أن يخضعوا ويستسلموا أو يتذمّروا من شیء(مستوفی، ۱۳۴۱: ۲۸۸):

«وأخبرنی بأن الطفَّ، ما زالت ترضٌّ،
على ثراه الأضلع الحمرا
وما زالت ملطخةً هناک الأذرع البترا
وما زال الرضيعُ،
يذوب من عطشٍ فتمسح وجهه الحورا
ومازال الحديد يئنُ،
ويثقل مشيةَ الأسرى
ويا نصلاً يمزقنی،
ويطلبُ من بقايا جثتی الأجرا
ترفق، لستُ مجنوناً،
ومن أدری؟
من الأوداجِ حين تعانق السكينةٌ النحرا
ومن أدری؟..
ولا تغضب
إذا ما أطفأوا جمرَ السكائرِ فی العيون،

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

ومزقوا الأجساد

ويغمرُ وجهه بدمٍ»

(السنيد، ۱۹۸۸: ۹۷-۱۰۸)

توجد علاقة بين قضية *الحسين* واللون الأحمر، وربما كانت أكثر الصور الحسية تواجدا فى المشهد الحسينى هى ما صُبغت بالحمرة، والشاعر حرص على أن يقدم صورته الحسية ملونة من خلال دلالة الأجساد المبتور المصبوغ بالدم والأصبع المقطوع، ليومىء إلى عالم الخنوع شارحا قصة الشهادة والإسارة التى يقدم من أجلها النفيس. ثم ختم صوره الحسية بألوان العذاب التى تكلمت بفم الحقيقة عن تأثير *الحسين* فى الآخر(عنوز، ۲۰۱۳: ۸۰).

فقد توحد الشاعر مع قضية عاشوراء ومع العراق، وانتهى إلى أن الدماء التى ضرج بها *الحسين*، إنما ضرج بها العراق بأكمله، لذا يستحضر الشاعر أبطال عاشوراء، فى شعره رمزاً للتضحية وللصبر الطويل صبر المواطن العربى على مرارة الظلم والطغيان، بينما يتخذهم رمزاً لمعاناته وآلامه الشخصية فى طريق القيام والثورة على الإستبداد فى العراق. فنرى الصور الحسية خير معبر بدلالاتها عن نقل واقع إذ يبين الشاعر الرفض موقفه أمام الواقع، فلذلک لوّن الشاعر بصوره الحسية العراق باللون الأحمر الألم، لأنه كان المكان الذى جمع بين وقفة الخير والصلاح المتمثّلة *بالحسين* وآله وصحبه، وبين لمة الكفر أعوان الطاغية، وبذلک حقق الشاعر نموّاً فكريا لصور أضاءت مضمون نصه.

نتيجة البحث

النهضة الحسينية لبست الثوب الشعرى، وعبّرت بفم الحقيقة عن قضية *الحسين* ومعانيها ومضامينها وأهدافها السامية.

ينشد الشاعر الحسينى عن *الحسين* الذى يهزمه الطاغوت مادياً، فينتصر *الحسين* عليه معنويا، ويهزمه بالسلاح فينتصر *الحسين* عليه بالكلمة، ويهزمه فى زمن معين فينتصر الإمام عليه فى كل زمن، ويهزمه فى المكان المحدد فينتصر عليه فى كل مكان، ويهزمه بالباطل فينتصر عليه بالحق، ويهزمه بالجهل فينتصر عليه بالمعرفة، ويهزمه بالعنف، والتضليل، والعبودية، وبتكميم الأفواه فينتصر عليه بالرفق، والحقيقة، وبالحرية، وبحرية التعبير، ويهزمه بالنفاق، وبالعمى، فينتصر عليه بالصدق، وبالبصيرة النافذة، ويهزمه

بالموت، وبالجمود فينتصر عليه بالحياة، وبالثورة، وأخيراً يهزمه بالجاهلية فينتصر عليه بالإنسانية، والإسلام، والحضارة.

أما *الحسين* فلم يكن هدفه السلطة من أجل السلطة، أبداً وإنما إستهدف السلطة الظالمة من أجل التغيير نحو الأفضل والأحسن، وشاعرنا أيضاً إستدعى شخصية *الحسين* وقضية عاشوراء لتحقيق أهدافه منها ١)تحريض الشعب لإسقاط النظام وإسقاط شرعية السلطة البعثية التى نزت على الحكومة بغير مشورة ولا رضى من الشعب؛ ٢)إبطال نظرية الحاكمية المطلقة للسلطة، والتى تلغى إرادة الأمة؛ ٣)إثارة حرية الإختيار، لإعتقاده الجازم وإيمانه الراسخ بحق العقل وحق الضمير فى تعيين المصير؛ ٤) تفسير مفهوم الحياة والموت بطريقة أخرى، تختلف عما يفهمه الناس؛ ٥) شرح مفهوم البيعة لشعبه، أو ما يسمى اليوم بصوت الناخب الذى يدلى به فى صندوق الإقتراع، كمسؤولية شرعية وتاريخية، لا ينبغى لأحد أن يعطيها لكل من هب ودب، فقد تنتهى به إلى النار بعد أن تصادر حريته وتقضى على كرامته وتفسد المجتمع بنظام سياسى فاسد؛ و٦)كشف جرائم النظام السياسى السفاک فى قمع وقتل المواطنين، الذين خرجوا إلى الشوارع مجردين من أى سلاح إلا سلاح الكلمة مطالبين بالتغيير والإصلاح لإعادة الكرامة إلى الشعوب المقهورة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. ٢٠٠٧م، **مقدمة ابن خلدون**، اعتنى به هيثم جمعة هلال، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة المعارف.

أمين، أحمد. ١٩٣٦م، **ضحى الإسلام**، الطبعة السابعة، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

بدر الدين، إكرام. ١٩٨٦م، **الديمقراطية الليبرالية ونماذجها التطبيقية**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الجوهرة للطباعة والنشر والتوزيع.

التميمي، مهدى حسين. ٢٠١٢م، **الإمام الحسين بن على أنموذج الصبر وشارة الفداء دراسة ومقارنة**، الطبعة الأولى، كربلاء: وحدة الدراسات التخصصية فى الإمام الحسين فى قسم الشؤون الفكرية والثقافية فى العتبة الحسينية المقدسة.

السنيد، حسن [جواد جميل]. ١٩٨٦م، **صدى الرفض والمشنقة**، الطبعة الأولى، طهران: معاونية العلاقات الدولية فى منظمة الاعلام الاسلامى.

السنيد، حسن [جواد جميل]. ١٩٨٨م، **أشياء حذفتها الرقابة**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفرات للنشر والتوزيع.

السنيد، حسن [جواد جميل]. ١٩٩١م، **للثوار فقط**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفرات للنشر والتوزيع.

السيد جاسم، عزيز. ١٩٩٥م، **دراسات نقدية فى الأدب الحديث**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مطهرى، مرتضى. ١٣٨١ش، **حماسه حسينى**، چاپ چهل‌ام، تهران: انتشارات صدرا.

مک داول، ديويد. ١٣٨٣ش، **تاريخ معاصر كرد**، ترجمه ابراهيم يونسى، چاپ دوم، تهران: نشر پانيذ.

المقالات

صدّيقى، محمد الناصر. ٢٠١٢م، «**بواكير الفكر السياسى عند المنبثقات الشيعية: من الاصطفاف العلوى إلى نشأة المجموعات الغالية(القسم١)**»، دفاتر السياسة والقانون، العدد٦، صص٣٨-٤٧.

پرتال جامع علوم انسانی